الدرس (٠٣٢) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد عقد النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين بابًا عظيمًا في التفكر مبيِّنًا فيه أهمية التفكر وعظيم شأنه، وحاجة المسلم الشديدة إليه.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٩- باب في التَّفكُّر في عظيم مخلوقات الله تَعَالَى، وفناء الدُّنيا، وأهوال الآخرة، وسائر أمورهما، وتقصير النَّفس وتهذيبها، وحملها عَلَى الاستقامة

هذا بابٌ عظيمٌ عقده المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التَّفكُّر، وبيان أهمِّيَّته، وأنَّ التَّفكُّر الصَّحيح هو الَّذِي يجلب للعبد أبواب الخير وأبواب السَّعادة، عندما يتفكَّر في عظيم مخلوقات الله، من جبال، وأنهار، وأشجار، وسماء وأرض، وشمسٍ وقمر ونجوم، وغير ذلك، وفي آياته العظيمة: باختلاف الأحوال؛ ليلٍ ونهار، حرٍّ وبرد، شتاء وصيف، ربيع وخريف، ولله الحكمة البالغة في ذلك.

وأنَّ هذه المخلوقات العظيمة لم يخلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باطلًا، وإنَّما خلقها لغايةٍ، وأوجدها لحكمةٍ، فإذا شغل العبد نفسه بهذا التَّفكُّر نفعه غاية النَّفع، وأيضًا يتفكَّر في فناء الدُّنيا وقصرها، وزوالها، وأنَّها ليست باقية لأهلها، وأنَّ أهلها منتقلون عنها، وأنَّها دار معبر للدَّار الآخرة.

ثمَّ يتفكَّر في أهوال الآخرة، وما أعدَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها من النَّعيم لأهل طاعته، وما أعدَّ فيها من العقوبة لأهل معصيته، فيتفكَّر في أمر الدُّنيا وأمر الآخرة: أمر الدُّنيا من حيث حقارتها، وسرعة فنائها وزوالها، ويتفكَّر في الآخرة وأهوالها، وشدائدها، ثمَّ في الوقت نفسه يتفكَّر في تقصيره، وأنَّه مُقَصِّر في جنب الله الرَّبِّ العظيم، والخالق الكريم؛ فيُهذِّب بهذا نفسه ويحملها على الاستقامة.

وهذا تدرُّج جميل نافع، أورده المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، باب التفكر وتهذيب النَّفس، وحملها على الاستقامة، وأنَّ من أعظم أبواب حمل النَّفس على الاستقامة، وتهذيبها؛ أن يُعمِل فكره إعمالًا صحيحًا، لأنَّ كثيرًا من النَّاس تذهب أفكارهم مذاهب شتَّى، وطرائق قِدَدًا، يضيعون من خلالها بسبب الأفكار السَّيِّئة الَّتِي تجول في نفوسهم وعقولهم.

وفي القرآن آياتٌ عديدة مشتملة على الحثِّ على التَّفكُّر، وبيان عظيم شأنه وجليل قدره وكبير عوائده وفوائده، وثناءٍ على أهله وبيانٍ لعلوِّ مقامهم ورفعة شأنهم سيأتي ذكرٌ لبعضها.

وهذا التَّفكُّر العظيم الَّذِي دعا الله عَزَّوَجَلَّ عباده إليه وحثَّهم عليه ورغَّبهم فيه هو مفتاحُ كُلِّ خير، وأساس كُلِّ فلاحٍ وصلاح ، ومنبع كُلِّ فضيلة ، وهو من عبوديَّات القلب العظيمة الجليلة، وهو ينقل الإنسان من الغفلة إلى اليقظة، ومن المعصية إلى الطَّاعة، ومن المهانة إلى المعزَّة، وينقله من سيِّء الأمور وحقيرها إلى معالي الأمور ورفيعها.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ:٤٦].

هذه الآية فيها دعوة للتَّفكُّر وإعمال الفكر فيما فيه نفع العبد وفائدته، وفيما فيه أيضًا خلاصه من الباطل وسلامته من الضَّلال.

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: خصلة واحدة، إنْ اعتنيتم بها، واهتممتم بها، وأديتموها كما طُلِب منكم، فإنَّها ستكون سببًا لصلاحكم وفلاحكم، وهي التَّفكُّر، سواء

مجتمعين، أو كلَّ واحد منكم بمفرده. ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: خصلة واحدة عظيمة الأهمِّيَّة، جليلة الشَّأن.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين صادقين، وهذا فيه التَّجرُّد.. يتفكَّر متجرِّدًا من أهوائه، ومن حظوظ نفسه، ومن شهواته، وغير ذلك، يقوم مخلصًا قاصدًا معرفة الحقِّ، والوقوف عليه.

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: سواء كان هذا التَّفكُّر فرديًّا، أو كان باجتماع عدد مثنى أو أكثر من ذلك.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ أي: تفكَّروا فيما تقولون عن هذا الرَّسول، وهم كانوا يتَّهمونه بالجنون وبالسَّفَه وغير ذلك، فدعاهم إلى خصلة واحدة، وهي: أن يتفكَّروا بتجرُّد وإنصاف قبل أن يحكموا عليه، بعيدًا عن الأهواء، وحظوظ النَّفس وغير ذلك، تفكَّروا في هذا الرَّسول وفي أمره، وفي أخلاقه، وفي صفاته، وفي أعماله، وفي دعوته، وفي معاملته، تفكَّروا في ذلك كلِّه!

ولا شكَّ أنَّ مَن يُوفَّق للتَّفكُّر الصَّحيح بإخلاصٍ وتجرُّدٍ، سيصل إلى الغاية النَّبيلة، والهدف السَّديد، بخلاف مَن يُلْغي فكره وعقله، ويتعامل مع الأمور بأهوائه المُجرَّدة، وحظوظ نفسه، فهذا بعيد كُلَّ البعد عن أن يصيب الحقَّ، أو أن يناله، بينما مَن يتفكَّر بتجرُّد وإنصاف وتعقُّل، فإنَّه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يهدى إلى صراطٍ مستقيم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] الآيات.

هاتان الآيتان من سورة آل عمران فيهما دعوة إلى التَّفكُّر وبيان لأهمِّيَّته، وحثٌّ للعباد عليه، وبيانُ أهمِّيَّة التَّبصُّر بآيات الله وتدبُّر خلقها، ففي ذلك نفعٌ عظيم للقلوب، وإحياءٌ لها،

تصل من خلاله إلى قَدِر خالقِها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقَّ قدره، وأنَّه لم يخلق هذه المخلوقات عبثًا، ولم يُوجِدها باطلًا، تنزَّه وتقدَّس عن ذلك.

فخلق السَّماوات والأرض، واختلاف اللَّيل والنَّهار، يُعَدُّ آيةً عظيمةً دالَّةً على كمال مبدعها، وعظمة خالقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإنَّما ينتفع بهذه الآيات العظيمة أولوا الألباب، أي: أصحاب العقول السَّليمة، الَّتِي تحسن أن تتفكَّر وأن تتدبَّر، مع عنايتهم بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قيامهم وقعودهم، وعلى جنوبهم.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تفكُّر مريدٍ للحقِّ، مستدلٍّ بهذا التَّفكُّر على عظمة مَن خلق هذه السَّماوات، وخلق الأرض، وأوجدهما بهذه الصِّفة البديعة، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يفعل ذلك عبثًا أو باطلًا، أو لهوًا أو لعبًا، تنزَّه وتقدَّس عن ذلك، حاشا أن تكون هذه السَّماوات بهذا الإحكام، والأرض بهذا الإتقان، واللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر والنُّجوم، إلى غير ذلك من آيات الله العظام، والبراهين الجسام خلقت بعثًا أو لهوًا، أو باطلًا.

فيستدلُّ بعظم خلق السَّماوات والأرض، على كمال الخالق وعظمته، وأنَّه ما خلق هذا الخلق باطلًا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزَّهت وتقدَّست عن ذلك.

ويستفاد من ذلك: أنَّه يشرع للمسلم أن يعنى بهذا التَّفكُّر، بل كما ذكر أهل العلم إنَّ التَّفكُّر في خلق السَّماوات والأرض، وغير ذلك من آيات العظام، عبوديَّة من عبوديَّات القلب، الَّتِي تزيد الإيمان، وتُقَوِّي اليقين، وتُقَوِّي الصِّلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما هو حال أولي الألباب الَّذِين وصفهم الله في هذا السِّياق المبارك؛ بأنَّهم يتفكَّرون في خلق السَّماوات والأرض، تفكُّرًا يُثمِر إيمانًا بالله، وصلةً به، حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وكان نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا قام من نومه من اللَّيل ليُصلِّي، يبدأ بتلاوة هذه الآيات من أواخر سورة آل عمران، ولا شكَّ أنَّ وقت الثُّلث الأخير من اللَّيل بعد اليقظة من النَّوم، وقت

سكون وطمأنينة، فهو أنفع وأقوى في مثل هذا التَّفكُّر، وأجدى في الآثار العظيمة، والثِّمار المباركة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:١٧-٢١].

هذه آيات عظيمةٌ في باب التَّفكُّر في مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، الدَّالَّة على وجوب توحيده، وإخلاص الدِّين له، فقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع، وجمالها، وكبر أجسامها وقوَّتها، وكيف سخَّرها الله للعباد، وذلَّلها لمنافعهم الكثيرة الَّتِي يحتاجون إليها، ويضطرُّون إليها؟!

كذلك: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ فرفع السَّماء بغير عمد، وهذا من الآيات العظيمات، الدَّالَّة على كمال الخالق، وعظمة المبدع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك النَّظر إلى الجبال كيف نصبت، بهيئة باهرة عجيبة، حصل بها استقرارُ الأرض وثباتُها، وعدمُ اضطرابها، وأودع فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المنافع الكثيرة.

وكذلك النَّظر إلى الأرض كيف سطحت، أي: كيف مُدَّت مدًّا واسعًا وسهِّلت، كي يستقرَّ النَّاس على ظهرها، ويتمكَّنوا من أنواع المصالح والمنافع، من بناء البيوت، وغرس الأشجار، وحرث الزُّروع، وأيضًا الطُّرُق الَّتِي سهَّلها لتنقُّلاتهم، فهذه كلها من منافع سطح الأرض.

كان شُرَيْحٌ الْقَاضِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: اخرجوا بنا حتَّى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السَّماء كيف رفعت؟ أي: كيف رفعها الله، عَزَّوَجَلَّ، عن الأرض هذا الرَّفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦].

فإذًا؛ التَّفكُّر في هذه الآيات الَّتِي هي حول الإنسان وفوقه وتحته، تدعو المُتَفَكِّر إلى الوصول إلى أحمد الغايات وأنفعها بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ الآية.

هذا ورد في ستَّة مواضع من القرآن ثلاثةٍ بلفظ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ وثلاثةٍ بلفظ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [الرُّوم:٩، فاطر:٤٤، غافر:٢١]، وجميعها في بيان عاقبة المُكَذِّبين للرُّسل عليهم السَّلام ، يأمر فيها سبحانه المُكَذِّبين للرُّسل بالسَّير في الأرض، بالقلوب والأبدان، للاعتبار بحال مَن قبلهم من المُكَذِّبين، لا لمُجَرَّد النَّظر دون اعتبار، فقد كانوا أكثر منهم أموالًا وأولادًا وأشدَّ قوَّة، وعمروا الأرض أكثر ممَّا عمرها هؤلاء، فلمَّا جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوَّتهم، ولم تغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللّه شيئًا، ونفذت فيهم قدرة اللّه ومشيئته، وقد قال الله تعالى في خاتمة الآية الأخيرة من هذه الآيات ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمَّد:١٠]. أي وللكافرين في كُلِّ زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الأليمة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والآيات في الباب كثيرة).

الأمر كما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرَّعد:٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل:١١]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم:٨]، وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال المصنف رحمه الله: (ومن الأحاديث: الحديث السَّابق: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**»).

قد تقدَّم الكلام على معنى هذا الحديث، و«**الكَيِّسُ**» هو الحاذق الفطن، ولا شكَّ أنَّ مَن كان كذلك؛ فإنَّه سيحاسب نفسه ويعاتبُها، ويتفقَّدُ أعماله، بخلاف العاجز؛ فإنَّه يتبعُ نفسه هواها، ويتمنَّى على الله الأماني.

وأختم الحديث على هذه التَّرجمة بنقل كلامٍ لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه «الفوائد»، حول موضوع التَّفكُّر، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل الخير والشَّرِّ من قبل التَّفكُّر، فإنَّ الفكر مبدأ

الإرادة والطَّلب، في الزُّهد، والتَّرك، والحبِّ والبغض، وأنفع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار، ويليها أربعةٌ: فكرٌ في مصالح الدُّنيا، وطرق تحصيلها، وفكرٌ في مفاسد الدُّنيا، وطرق الاحتراز منها، فهذه أربعة أفكار، فعلى هذه الأقسام الثَّمانية دارت أفكار العقلاء.

ورأس القسم الأوَّل: الفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره، ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه وصفاته، من كتابه، وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبَّة والمعرفة، فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدُّنيا وخسَّتها وفنائها، أثمر له ذلك الرَّغبة في الآخرة والزُّهد في الدُّنيا، وكُلَّما فكَّر في قصر الأمل وضيق الوقت؛ أورثه ذلك الجدّ والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الأوقات.

وهذه الأفكار تعلي همَّته، وتحييَها بعد موتها وسفولها، وتجعلُه في وادٍ والنَّاس في وادٍ آخر»[(١)].

ثمَّ أخذ يتحدَّث رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عن الأفكار الرَّديئة السَّيِّئة، وعظم مضرَّتها على أهلها في دنياهم وأخراهم.

ومَن لم يَشغَل قلبه بالأفكار النَّافعات والتَّفكير الَّذِي يعود عليه بالخير في دنياه وأخراه انشغل قلبه بأفكارٍ رديئة وتفكُّرٍ مذموم في أمور منحطَّة وأعمالٍ سيِّئة ؛ ولهذا يشبِّه بعض أهل العلم النَّفس البشريَّة بأنَّ مثلها كمثل الرَّحى دائمة الدَّوران[(٢)] تطحن كُلَّ ما يُلقى فيها ، فمَن وضع في هذه الرَّحى قمحًا وشعيرًا وجد طحينًا ينتفع به ، ومَن يضع فيها قذرًا أو حجرًا أو حصًى أو رملًا أو زجاجًا فلن يحصِّل مَن هذا طحينًا ينتفع به ، وهكذا نفس الإنسان تدور بأفكار وأفكار ثمَّ ينبع عن تلك الأفكار إرادات وعزوم ؛ فمَن كانت أفكاره وتفكُّره فيما

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيِّم (ص٢٨٧).

(٢) انظر: الفوائد لابن القيِّم (ص٢٥٤).

ينفعه في معاشه ومعاده فإنَّه سيمضي في هذه الحياة على خير حال ، ومَن كانت أفكاره في أمورٍ حقيرة وأعمال دنيئة فإنَّها ستوصله إلى المهالك.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لبعض أصحابه وقد رآه مُفَكِّرًا: أين بلغت؟ قال: الصِّراط[٣].

فشتَّان بين مَن يرتحل بأفكاره إلى ما ينفعه في معاده ومعاشه، فيتفكَّر في وقوفه بين يدي الله، وينظر في غده وحساب الله له وفي الصِّراط وأهوال القيامة خوفًا وإشفاقًا، وبين مَن أفكاره تسبح في أوحال الذُّنوب ودروب المعاصي سفولًا وإغراقًا.

وما أحوجنا إلى أن نعالج أفكارَنا، وأن نصحِّح مسارَنا، وأن نجاهد أنفسنا على الواردات النَّافعة والأفكار القويمة الَّتِي تعود علينا بالنَّفع العظيم والخير العميم في الدُّنيا والآخرة.

هذا ونسأل الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا وأن يزيدنا علمـًا وتوفيقـًا وأن يصلح لنا شأننا كله؛ إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(٣) عزاه الزبيديُّ في شرحه (١٣/ ٣١٢) إلى «الحلية»، ولم أقف عليه.